الداهوما

(رسالة خاصة لمجلة الاخاء)

لنا صديق يدعى الدكتورف. أونكوفسكي وهو شاب روسي من أسرة عريقة في الحسب قذفت به « الحرب العالمية » مع كثير من مواطنيه المهاجرين الروس الى القاهرة حيث ضاقت في وجهه سبل الرزق . فسافر الى السودان عام ١٩٢٣ وانقطعت عنا اخباره وفي أواخر يوليو الماضي بعث الينا ببذه الرسالة من « بورتونوفو » عاصمة بلاد الداهوما الكائنة في غرب أفريقيا وعلى ضفاف خليج « جينيه » بالمحيط الاطلانطيكي يصف بها تلك البلاد القصية فآثرنا تعريبها لقراء مجلتنا لما فيها من الفائدة والفائدة .

(المحرر)

* * *

أكتب لكم هذه الرسالة في شهر يناير (كانون ثاني) والحر شديد يزهق النفوس ويخمد الانفاس وقد بلغت درجة الحرارة في الظل ٤٣ بمقياس سانتيغراد وبلغت في الخارج تحت أشعة الشمس المحرقة ٦٠° . والجو عبارة عن كور حداد واذا رفع الانسان رأسه صادفته أمواج من اللهيب المستعر ولو وقع على وجهه لعمى بصره فيضطر الى اغماض عينيه . اما الارض فهي عبارة عن اتون محمي بنيران مستمرة . وأما الماء في خليج المحيط فانه ساكن كأنه بساط أزرق لا يتحرك وأما الشاطئ المكسو بالحشيش الطويل الساق فانه نام نوماً عميقاً لا تبدو عليه علامات الحياة . والسائر الى جانبه يرى عدة تماسيح خرجت من الماء واضطجعت على اليابسة . وهي تحب الخروج الى البر في الليالي القمراء غير أن الزنجيات اللاتي يجتمعن أفواجاً على الشاطئ لغسل الملابس يمكن صفاء التماسيح فتهرب خيفة منهن . ذلك لأنها تخشى بني آدم كثيراً ولكن اذا ابتعد سابح عن الشاطئ فانها تلتهمه التهاماً وهذا من الندورة بمكان لأن الزنوج موصوفون بخفة الحركة والرشاقة والقوة وهم يلقنون أولادهم علم الحياة وعلم صيد التماسيح ومصارعة آفات البحار والانهار . ناهيك عن اولئك الذين ولدوا على الشواطئ والفوا المياه منذ نعومة أظفارهم فهم في البحر والأسماك سواء . يغوصون تحت الماء بخفة متناهية

حيث يما كون الاسماك الكبيرة ويتحرّشون بالمناسيح . فهم بهذا المعنى يحبون اللعب بالخطر . وكثيراً ما يحدث أن صبياً طائشاً معتداً بقوته وسرعة حركته يقفز على ظهر النساح تحت الماء أو على ظهر كلب البحر أو سمكة ضخمة حيث يمكث ثواني معدودة ثم يثب سابحاً فتلحقه السمكة ولكنها لا تستطيع ادراكه لأنه أخف منها وأسرع وقد يذهب مثل هؤلاء المجازفين ضحية طيشهم وجرأتهم

دعوت ذات مرة من جمع من هؤلاء النسوة وكان برفقي ترجمان ترجم لي حديثاً دار بين اثنتين منهن وهو :

— هل تحبين زوجك ؟

— كلا ـ اني لا أحبه بل أكرهه كثيرا لان له عشر زوجات . غيري . وأما أنت فسعيدة لأن رجلك لا يملك زوجة سواك . فانا أحسدك على ما أنت فيه من الغبطة : ..

— وأنا أحسدك أيضا لانك غنية وتأكلين كل يوم مختلف الأطعمة :

— تباً للطعام ! ان الجوع لأحب اليّ على أن أكون في المنزل وحدي

— انك لحمقاء ياعزيزتي فانني أنا وحدي في المنزل وماذا يفيدني ذلك فان شغل زوجي على غير مايرام . أنه حمال يشتغل فقط عند ما ترسو عندنا سفن مشحونة بالبضائع . ولكن شدة الانواء في الاوقيانوس تمنع السفن من الرسو في موانئنا. فانا وأولادي وزوجي جياع تقاسي مضض الفقر والحاجة

وبعد أن ترجم لي الترجمان هذا الحديث قلت ان الناس في كل بلد سواء . نحن أوربيون متمدينون وهم برابرة متوحشون . ولكن جوهر الانسان واحد . وعنصره واحد . ومطالبه واحدة . ومراميه متفقة !...

ثم سرت محاذياً للساحل على مسافة مائة متر تقريباً من الماء لأنه على جانبي شاطئ الخليج الاوقيانوسي مستنقعات تمتد الى مسافة ٤٠٠ كيلو متر وينمو فوقها نبات يتراوح علوه مابين ٤٥٠ أمتار وتنبت كذلك الحلفاء قليلا ولكن في الغالب ينبت حشيش خاص ذو سوق مستطيلة ينتهي باقراص مستديرة كالوردة في حجم الصحن الكبير وهو سريع النمو ويمتاز بقوة حيوية مدهشة فاذا حصد بالمنجل فانه في

خلال أسبوعين ينمو ويبلغ قامة الرجل علواً وقد عملت تجربة بنفسي فاني ذهبت يوم أحد ووضعت قبعتي القديمة على ساق نبات محصود حديثاً وبعد أسبوعين عدت اليه فوجدت قبعتي تلوح في الهواء على رأس ذلك الساق بحيث لم تستطع يدي الوصول اليها

ان ساق هذا النبات بثخن الاصبع وهو مجوف أخضر وينمو الى جانب بعضه بحيث يصبح المستنقعات جداراً أخضر كثيفاً. لا يمكن اجتيازه فضلا عن أن الحيات والثعابين تأنس هذه المستنقعات ولاسيما اذا كانت على مسافة كيلو مترين أو ثلاثة عن المدن . وكلها سامة اذا لدغت انسانا أو ردته حتفه .

ويجوار منازل السكان تكثر الحراذين (الاوزاع) كثرة هائلة وهي غير سامة وتسمى باللغة الداهومية « مارهويا » . يبلغ طول الواحدة منها ربع ذراع وهي صفراء البطن رمادية الظهر وذات عينين بارزتين . تتغذى بالحشرات والهوام . ولا أبالغ اذا قلت انها تعد بالملايين في هذه البلاد . فانك حيثما ذهبت وأينما سرحت النظر ترى « المارهويا » منتشرة واذا كنت سائراً في الشارع تجدها بالعشرات والمئات تقفز بسرعة البرق على أغصان الاشجار وعلى السياجات العامة وحيطان المنازل والاكواخ حتى يكاد لا يخلو منها مكان. وفي غرفتي خمسة منها متقدمة في السن وقد توالدت وتناسلت عندي. وأحياناً تزورها بنات عمها وبنات خالتها ... لاني أرى في غرفتي جيوشاً غفيرة منها . ولكن الخمسة المذكورة تعيش معي بصورة دائمة وقد ألفتها وألفتني. وعند ما أدخل المنزل تقفز ولكن بدون سرعة أي أنها تتلاعب وتتداعب !... وحين أمد يدي لامسكها لا تهرب بل تثب الى كتفي ثم تقفز بسرعة على الارض .

شاهدت ذات يوم احتفالا « وطنياً » اقامه الاهالي اكراماً لمعبوداتهم المسماة بلغتهم « فيتيش » (وهي كلمة برتغالية الاصل) واليك وصفه.

سارت جماهير من الزنوج المسلحين حول جماعة منهم يحملون على سرير فخم رئيسهم الأعلى الملقب « بملك الفيل والغابات » تظله مظلة من الحرير الملون المزخرف والى جانبه وزير البلاط الزنجي. وكان الملك مرتدياً حلة مبرقشة مطرزة بخيوط الذهب وعلى رأسه قبعة يتماوج فوقها ريش الطاووس الطويل. وكانت نساؤه تتبعنه تحت مظلة اخرى نفيسة وكن عاريات. وأمامهن فرقة موسيقية كل افرادها عراة يضربون قطعاً

من النحاس أشبه بالطبول وينفخون بابواق تخرج منها اصوات مزعجة !...

ومرّ بعد هذا الجمع الحافل جوق الراقصات والراقصين وكانوا يحنون شبكات صدورهم طوراً الى الوراء وأخرى الى الامام ويديرون بطونهم . ويحركون اشداقهم وعيونهم حركات غريبة مضحكة . ويلوحون بأيديهم وأرجلهم . وكانت الشمس محرقة وتبلغ حرارتها ستين درجة بحيث كان العرق يسيل بغزارة من اجسامهم العارية . ومع هذا لم يشك أحد منهم تعباً أو ألماً !...

ومازال الموكب سائراً في طريقه على هذا الترتيب حتى بلغ شاطىء النهر . وكان مزداناً بالشرط الحمراء . وهناك نحروا الذبائح وأضرموا النيران وقضوا سحابة يومهم في الرقص واللعب والغناء وتناول الطعام .... اه

* * *

(الاخاء)

تبسط فرنسا حمايتها ونفوذها على « الداهوما » بمقتضى معاهدات أبرمت سنة ١٨٤١ و١٨٥٨ و١٨٦٨ و١٨٧٨ و١٨٩٠ وقد تعينت حدود هذه البلاد رسمياً باتفاقيتين عقدت أولاهما بين فرنسا والمانيا سنة ١٨٩٧ وثانيتهما بين فرنسا وانكلترا سنة ١٨٩٨

وتبلغ مساحة الداهوما ٣٦٩٫٠٠٠ كيلومتر مربع وسكانها نحو ٢٠٠٫٠٠٠ نفس من وطنيين وأوربيين ومن اشهر مدنها : بورتو نوفو (العاصمة) . وكوتونو . وبوبو الكبرى . وويدة في القسم السفلي منها . ثم بارا كو وزوغو وكاريمانا في قسمها العلوي لكن طرق مواصلاتها قليلة جداً بالرغم عن وعورة مسالكها .

أما صناعاتها وتجارتها فلا تستحق الذكر . وأما الزراعة فهي في القسم السفلي المناقب للبحر اغنى وأخصب منها في القسم العلوي . فمن محصولاتها البلح رجوزة الزنج والبطاطس الصيني والذرة والفول السوداني والبن وزيت النخل .

وتوجد في الداهوما مدارس اهلية بحتة وغيرها أجنبية تحت ادارة واشراف المرسلين الامريكان . غير أن التعليم فيها لا يزال في مهد الطفولة .

ومن الامراض الفتاكة هناك : داء التدرن الرئوي المتفشي بين الاهالي الوطنيين لتهالكهم على احتساء المشروبات الروحية . وحمى المستنقعات وهي تصيب الكثيرين من النزلاء الاوربيين فلا تبقي عليهم ولا تذر .